الفصل الثالث

دوافع التقنّع
أو أسباب استخدام القناع

هناك مجموعة من العوامل الفنية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي دفعت بالشعراء المعاصرين إلى استخدام الأقنعة التراثية في قصائدهم. وهذه العوامل مترابطة فيما بينها، بحيث يصعب الفصل الحاسم بينها. ويمكن تصنيفها في:

1- الدوافع الفنية:

وتتمثل في رغبة الشاعر في الارتقاء بشعره إلى عالم التعبير الموضوعي. وقد بحث الشعراء عما يخفّف من السمات الذاتية والغنائية التي وسمت شعر النصف الأول من القرن العشرين، فظهرت في نصفه الثاني اتجاهات شعرية جديدة، ذات منحى موضوعي، تمثّلت في خلق (القصيدة الدرامية) التي يخالطها حوار مسرحي، و(قصيدة المونولوج) التي يتحدث فيها الشاعر مع نفسه، و(قصيدة المونتاج) التي استعار الشعراء أسلوبها من السينما، حيث ترتب اللقطات بعد تصويرها، على أساس فني وفكري، تبعاً لمضمون القصة، وليس كما التقطت به الصور، و(قصيدة البالاد) وهي قصة شعرية، و(قصيدة الكولاج) التي تستخدم فن الملصقات من قصاصات الصحف والإعلانات، و(القصيدة المتعددة الأصوات)، و(قصيدة القناع) التي يتحدث فيها الشاعر المعاصر من خلال شخصية تراثية يراها معبّرة عن تجربته المعاصرة، وغيرها...

وعندما يلجأ الشاعر المعاصر إلى استدعاء شخصية تراثية، ليتحدث من خلالها، فإنها تصبح بمثابة النافذة التي يطل منها على العالم، فيحقق بذلك الموضوعية التي يبتغيها، ويبتعد عن الذاتية والمباشرة اللتين لم تعودا تحركان مشاعر الآخرين. يقول

البياتي: «القناع هو الاسم الذي يتحدّث من خلاله الشاعر نفسه متجرداً من ذاتيته، أي أن الشاعر يعمد إلى خلق وجود مستقل عن ذاته، وبذلك يبتعد عن حدود الغنائية والرومانسية التي تردّى أكثر الشعر العربي فيها»[1].

وفي هذا القول صدى لنظرية (ت. س. إليوت) في (المعادل الموضوعي) التي يرى فيها: «إن الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في قالب فني أن تكون بإيجاد (معادل موضوعي) لها، وبعبارة أخرى مجموعة من الموضوعات، أو موقف، أو سلسلة من الأحداث تشكل وعاء لهذه العاطفة الخاصة، بحيث تتفجر هذه العاطفة في الحال، عندما تقدم الأحداث الخارجية موضوعة في تجربة حسية»[2]. وقد افتتن البياتي بترديد أفكار إليوت عن المعادل الموضوعي في كل مناسبة، وبها سوّغ لجوءه إلى استخدام الشخصية التراثية كقناع.

وعندما يعود الشاعر المعاصر إلى تراثه القومي، أو إلى التراث الإنساني، ليوظف بعض شخصياته نماذج فنية. فإنه يعود - بذلك - إلى الينابيع، إلى مهد الطفولة البشرية في عهودها الأولى، فيشبع رغبة الحنين إلى عصور الفطرة والبراءة، وكأنما يطهّر نفسه من ملوّثات العصر. ذلك أن استلهام التراث وبعث شخصياته، وتوظيفها توظيفاً فنياً، يتيح للشاعر أن ينوّع في أساليبه، فيبتعد عن الغنائية الذاتية، ويمدّ القصيدة بطاقات فنية جديدة، ويضع أمثلة مضيئة أمام القراء. فالشخصيات المستدعاة من التاريخ الراهن خاضت - في عصرها - صراعات اجتماعية وسياسية قادتها إلى حتفها. ومن هنا فاعلية الذاكرة الثقافية في أنها تحمّل كل شخصية همّاً يختلف عن هموم غيرها. ومن ثم فإن الشاعر المعاصر عندما يتحدث من خلف قناعها، فإنه يتحدث عن معاناته وتجربته التي تشبه معاناة الشخصية التراثية وتجربتها. وبهذا يخرج من ذاتيته الضيقة المغلقة إلى التجربة القومية أو الإنسانية في فضائها الرحب.

2- الدوافع الثقافية:

تجلّت في تأثر الشاعر العربي المعاصر بالشعر العالمي، نتيجة الانفتاح الثقافي الذي أتاحته وسائل الإعلام الحديثة، وحركة الطباعة والنشر. ومن أبرز ما تأثر به شعراؤنا المعاصرون شعر ت. س. إليوت، وعلى الخصوص قصيدته (الأرض اليباب)،

---

[1] عبد الوهاب البياتي: تجربتي الشعرية، منشورات نزار قباني - بيروت 1968، ص 35.
[2] ماثيسن - ت. س. إليوت: الشاعر الناقد، تر: إحسان عباس، مط العصرية - صيدا - بيروت 1965، ص 132.

وآراؤه النقدية، وعلى الخصوص نظريته في (المعادل الموضوعي) التي ظهرت عام 1919 كمصطلح نقدي، ونصّت على أن «الشعر ليس إطلاقاً لسراح الانفعال، ولكنه هروب من الانفعال، وليس الشعر تعبيراً عن الشخصية، ولكنه هروب من الشخصية»[1]، وأن «المعادل الموضوعي هو خلق جسم محدد، أو موقف، أو سلسلة من الأحداث تعادل الوجدان الذي يُراد التعبير عنه، حتى إذا ما اكتملت الحقائق الخارجية، تحققت إثارة الوجدان»[2].

ومن الظواهر الجديدة التي تأثر بها شعراؤنا المعاصرون بالشعر الغربي الذي يتوخّى الموضوعية والتعبير غير المباشر: التوظيف الأسطوري في الشعر، واستخدام تقنية القناع في القصيدة، فالأدباء الغربيون «هم الذين أوحوا إلى كتّابنا وشعرائنا بالعودة إلى عالم الأساطير، سواء أرضوا أم رفضوا، لأن الدلائل كلها تشير إلى أن استخدام الشعراء العرب وتوظيفهم للأسطورة جاء نتيجة تأثرهم الواضح والمباشر بالكتّاب الغربيين، على الرغم من أن هذا التأثر لم يأتِ إلا متأخراً، وبفضل رواد حركة التجديد... الذين جاء تأثرهم إعجاباً ومحاكاة أول الأمر. ثم ما لبث أن تطور إلى الشكل الاستلهامي الجديد في الصياغة على يد رواد مدرسة الشعر الحر»[3].

وكما تأثر شعراؤنا المعاصرون، نتيجة احتكاكهم بالشعر الغربي، بتوظيف الأسطورة، فقد تأثروا بهم أيضاً في استخدام تقنية القناع في الشعر، رغبة في الموضوعية، وابتعاداً عن الذاتية. ولعل أول مَنْ استخدم تقنية القناع في الشعر الغربي هو الشاعر وليم بتلر ييتس[4]. لكن ظهوره في شعرنا المعاصر تأخر أكثر من نصف قرن عنه في الشعر الغربي[5]، فقد صرّح صلاح عبد الصبور مثلاً بتأثره باستخدام إليوت للقناع في شخصية (تيريزياس)[6].

3- الدوافع الاجتماعية والسياسية:

يكاد يُجمع الشعراء الحداثيون العرب المعاصرون على أن سيطرة الأنظمة القمعية، وانعدام الحريات، هو الذي دفعهم إلى التعبير الشعري غير المباشر، وبالتالي إلى اللجوء

---

[1] ت. س. إليوت: مقالات في النقد الأدبي، تر: لطفية الزيات - الأنجلو المصرية، ص 18.
[2] فائق متّى: إليوت، دار المعارف بمصر 1966، ص 29.
[3] عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السياب، دار الرائد العربي - بيروت 1984، ط2، ص21.
[4] انظر: فاضل ثامر: القناع الدرامي في الشعر، مجلة (الأقلام)، عدد 10 و11، عام 1981، ص73.
[5] انظر على سبيل المثال لا الحصر: صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر. وعبد الواحد لؤلؤة: البحث عن معنى.
[6] صلاح عبد الصبور - ديوانه، دار العودة - بيروت 1971، ص 3 / 185.

إلى الرموز، والأساطير، والأقنعة، يتحدثون من خلالها، ويحيلون إلى شخصياتها التي تصبح هي المسؤولة، وليسوا هم، وبذلك يتخلصون من المساءلة، ومن القمع السلطوي. إنهم يرغبون في تخليص العالم من فساده وشروره، ويرون أن المخلّص يجب أن يكون السلطة التي بيدها الترغيب والترهيب، والمنع والعطاء. ولكن المسؤولين سادرون في غيّهم، لا يهمّهم سوى ملء بطونهم وجيوبهم، ولهذا لجأ الشعراء، بوصفهم المثقفين، إلى الشخصيات التراثية، يتخذون منها أقنعة يتحدثون من خلالها، عما ينبغي أن يكون، يؤكد هذا قول بدر شاكر السيّاب: «لو أردت أن أتمثل الشاعر الحديث لما وجدت أقرب إلى صورته إلا الصورة التي انطبعت في ذهني للقديس يوحنا، وقد افترست عينيه رؤاه، وهو يبصر الخطايا السبع تطبق على العالم كأنها أخطبوط هائل»[1]. و«كي لا يصبح الشاعر الحداثي (غاليليه) يتنكر للحقيقة، وكي لا يكون مثل (سقراط) الذي كشف عن أفكاره على نحو مباشر وصريح، فحكم عليه بالموت، فإنه يلتفّ على المجابهة المباشرة، وعلى التعبير المباشر... من خلال القناع... حيث يمكّن القناع الشاعر من اختراق أي من أنظمة التابو التي يرغب في اختراقها، ويقيه في الوقت نفسه سطوة التابو السلطوي، فيحول دونه والأذى والأخطار التي يمكن أن تقع عليه»[2].

فعندما تحاصر السلطةُ الشاعرَ فإنه يلجأ إلى استخدام وسائل تعبير غير مباشرة، كي يوصل تجربته الشعرية إلى الآخرين، وليحمي نفسه من البطش. ومن وسائل التعبير غير المباشر: الرموز، والأساطير، والأقنعة، تقية وتعمية وتغطية، يقول السياب مسوّغاً لجوءه إلى التوظيف الأسطوري: «كان الواقع السياسي هو أول ما دفعني إلى ذلك، فحين أردت مقاومة الحكم السعيدي بالشعر، اتخذت من الأساطير التي ما كان لزبانية نوري السعيد أن يفهموها، ستارًا لأغراضي تلك، كما استعملتها للغرض ذاته في عهد قاسم، ففي قصيدة (سربروس في بابل) هجوت قاسماً ونظامه أبشع هجاء، دون أن يفطن زبانيته لذلك، كما هجوت ذلك النظام في قصيدتي الأخرى (مدينة السندباد)»[3].

لقد فزع الشعراء المعاصرون إلى الماضي، هرباً من قسوة الحاضر وظلمه وقمعه، فرأوا في الماضي ملاذاً أميناً، وقد وحّدت هذه العودة بين شاعر اليوم وشاعر الماضي،

---

[1] بدر شاكر السيّاب: مجلة (شعر) بيروت - صيف 1957، ص 111.
[2] عبد الرحمن بسيسو: قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، المؤسسة العربية - بيروت 1999، ص 191.
[3] عبد الجبار البصري: حواش على القصائد المرحلية في أدب السياب، مجلة (الأقلام)، ع12، س7، ص6.

وجعلت آلامهما وآمالهما واحدة، فخففوا بذلك من اغترابهم عن عصرهم، ومنحتهم هذه العودة قوة على مواجهة مشكلات الحاضر، و«لعل حرب حزيران 1967 كانت سبباً رئيساً في شيوع ظاهرة استخدام الشخصيات التراثية في الشعر. وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة كانت موجودة، إلا أن الشاعر المعاصر أحس أن الهزيمة قد عصفت بكيانه القومي، وزعزعت هويته، فازداد تشبثاً بجذوره القومية، علّها تمنحه بعض التماسك أمام تلك الهزيمة العنيفة، أو تمنحه بعض العزاء والسلوى»[1]، فليس مصادفة إذن أن أول قصيدة رائعة نشرت بعد هزيمة 1967 هي قصيدة (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) للشاعر أمل دنقل، وهي واحدة من قصائد القناع التي استخدمت الشخصيات التراثية.

[1] علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر - طرابلس - ليبية 1978، ص 52.